

جولة في حياة يهود بغداد ترويها رسائل فيوليت شماش

اليوم في البلاد التي باتت تعاني من الطائفية الدينية ومن الصراعات المتواصلة. ونفقد واحدة من الوثائق الدبلوماسية التي نشرها موقع ويكيليكس أن الجالية اليهودية في بغداد كانت تضم ثمانية يهود فقط في 2009.

وتشير إحصاءات رسمية إلى وجود 219 ألف يهودي من أصل عراقي في إسرائيل يشكلون أكبر مجموعة لليهود من أصول آسيوية. وقد صادرت الدولة العراقية ممتلكاتهم ومنازلهم، بما في ذلك مدارسهم بينما التي كانت مفتوحة في منطقة البتاوين في وسط بغداد، التي تتداعى يوماً بعد يوم بسبب الإهمال.

الزاعات التي اجتاحت عدا من الدول العربية في مطلع هذا العقد، وما رافقها من أحداث جسام وشن حملات تهجير وتطهير عرقي وديني، أعادت جميعها إلى الأذهان معاناة اليهود العرب، وأوجدت طلباً على نصوص تروي حكاياتهم، فاستجاب المؤلفون لذلك بإصدار سيل من الروايات كانت شخصها الرئيسية من اليهود العراقيين والمصريين والشاميين وسواهم.

ودارت أحداث أغلب هذه الروايات في الأحياء اليهودية في المدن العربية، حيث اختلفت تلك الأعمال في جديتها وجودتها، وترشح بعضها لنيل جوائز أدبية مرموقة، لكن رصف المكاتب ظلت تعاني من شح في النصوص غير الروائية، والشهادات الحية لأبناء تلك الجاليات، رغم كثرة الأعمال المنشورة لهم وعنهم بشتى اللغات الأجنبية.

**بسر حميم وأسلوب مرح
مثير للشجون تحمل لنا
رسائل فيوليت شماش
رواية امرأة يهودية عراقية
عاشت التهجير والصعاب**

ميرزة رسائل فيوليت شماش، أنها تحمل لنا رواية امرأة يهودية عراقية عاشت في ذلك الزمن ومرت بتلك الصعاب، وهي بسردها الحميم وأسلوبها المرح والمثير للشجون في أن واحد تتيح للقارئ العادي من شتى الأعمار والمشارب، وكذلك المؤرخ والباحث الأكاديمي، نصاً سلساً مشوقاً يشبع فضولنا لمعرفة حقيقة ما حدث وتفصيله.

ونذكر أن كتاب "رسائل فيوليت جولة في حياة يهود بغداد"، صدر أخيراً عن الدار العربية للعلوم ناشرون، قام بترجمته إلى العربية عن النص المنشور بالإنجليزية بطبعيتين بعنوان MEMORIES OF EDEN: المؤلف العراقي/ النيوزلندي والمهندس المعماري علي شاكر.



تاريخ مفيد ومنسي عن تسفير اليهود

المثقفون ورجال الدين كلاهما يعادي التراث

«تراث الاستعلاء» يعزز روح التعصب والعنصرية عند المسلمين



التراث ليس حالة من الإعجاب الفولكلوري

مقابل تراث آخر يعمق عدم المساواة، وروح التعصب، والتطرف، ونبذ الكراهية. وهذا الواقع يفرض علينا أن نركز على دراسة تلك الأنماط المختلفة للتراث من منظور نقدي، مع ضرورة تحليل مدى تشابكها مع سياقات اجتماعية وثقافية قائمة، بدلاً من أن نغض الطرف عن تلك التباينات داخل خارطة

التي تميز بين البشر بحسب الموروث الشعبي، ودون أن نظل متورطين في اهتمامات بحثية غرائبية أو موضوعات مألوفة من التراث، وبلا أي تحليلات متعمقة لإبعادها الاجتماعية والثقافية والسياسية.

ويرى أن التراث الاستعلائي "يتضمن كافة عناصر التراث اللامادي المعرزة للتمييز بين البشر بحسب خصائصهم وانتماءاتهم. إنه تراث يكرس مبدا التعالي على الآخرين بمقتضى اختلافهم، ويمثل أكثر جوانب التراث اللامادي تأثيراً في تقادم الصراعات الاجتماعية القائمة على روح التعصب والتطرف والكراهية. وإذا تأملنا جيداً جوهر الانقسامات الاجتماعية السائدة، والصراعات الإثنية والطائفية التي تتفشى كالوئمة في كثير من المجتمعات العربية، سوف نلاحظ أنها تستمد قوتها وعنفتها من وجود مجموعة من القيم والمعتقدات والأعراف السائدة التي تشكل جانباً، وليس بالقليل، من تراث ثقافي حول الاستعلاء، ومتخذ بقيم التعصب والكراهية والعنصرية".

ويوضح المصري "إذا تأملنا حال كثير من الثقافات الإنسانية في كل أنحاء العالم، سوف نكتشف وجود قدر من التعصب في النظرة للآخرين. وفي رؤية كل جماعة إنسانية لذاتها، ثمة ثنائية بين الأنا والآخر يتم بمقتضاها اعتبار الجماعة هي الأفضل على ما عداها من البشر خارجها. وهذا يفسر أحد أسباب التماسك الداخلي بين أعضاء الجماعة وتضامهم حول الانتماء المشترك. ومع ذلك فإن الاستعلاء حالة شعورية أشد وطأة من مجرد التصنيفات الاجتماعية التي يدرك بها البشر العالم. إنها تعبر عن العنصرية الثقافية، في أقصى صورها، وتبرر مشاعر النفور والعداء مع الآخرين".

ويشير إلى أن ملامح تراث الاستعلاء تبدأ بصور التمييز الثقافي المرتبطة بالخصائص الاجتماعية والتي تنتشر بقدر كبير في التراث الشعبي الشفهي. وهذا النوع من التمييز يمكن أن نطلق عليه "الاستعلاء البدائي"، حيث ينمو هذا التراث بصورة تلقائية في ظل أنماط من الحياة البسيطة التي تحتل فيها قيم الكورة والفحولة والعشائرية والإثنية أهمية كبيرة في حياة البشر.

التراث الشعبي لحملات مضادة باسم الحدائة وباسم التدين للقصاء عليه بكل الصور الممكنة. ويرى أنه أمام هذا الاستقطاب بين من يبالغون في أهمية التراث، ومن يقللون من شأنه، اتجه الرعيل الأول، من المهتمين بدراسات التراث الشعبي

في العالم العربي، خلال ستينيات القرن الماضي، نحو اتخاذ موقف فكري محايد بالاعتماد على تاصيل المنهج العلمي في دراسة التراث، ويقضي ذلك، في نظرهم، التجرد والموضوعية في دراسة التراث الشعبي، بصرف النظر عن قيمته

وعدم الوعق في ما أسماه محمد الجوهري "الإدانة أو التمجيد"، بمعنى عدم الحكم القيمي على التراث لا بالإيجاب ولا بالسلب.

ويوضح المصري أن هذه المرحلة شهدت انطلاق دعاوى اليونسكو للحفاظ على التراث اللامادي وصونه باعتباره رصيذاً إنسانياً لا ينبغي التفریط فيه. وكان لهذا الاهتمام العالمي صدًى كبير ومؤثر في تطوير حركة الاهتمام العلمي بالتراث الشعبي في مصر والكثير من البلدان العربية منذ ستينات القرن الماضي.

التراث الاستعلائي

يشير سعيد المصري إلى أنه بعد مرور نصف قرن على بداية حركة الاهتمام بالتراث الشعبي العربي، ينبغي أن نتساءل عن حصاد هذه التجربة في الدرس العلمي المنظم؛ وما الذي أخفقت فيه؛ حيث أنه أن الأوان للتفكير في إشكاليات تطوير التراث اللامادي، وفرض الاستبناك بين مفهومي الحماية واحترام التراث. ذلك أن الحماية تعني الحفاظ على التراث بوصفه إرثاً إنسانياً يجب الحفاظ عليه بكل صور الحفظ والحماية الممكنة.

وطرح تساؤلات جوهرية من قبيل: ما معنى تطوير التراث؟ وما المعايير التي ينبغي أن نستند إليها في التفرقة بين الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية في التراث؛ وأي عناصر من التراث تلك التي ينبغي العمل على تطويرها؛ وما حدود التطوير الذي يجب أن يتمتع به التراث بكافة عناصره؟

ولفت المصري إلى أن هناك تراثاً يدعم فكرة الإنجاب وهدر الموارد وثقافة الفقر وثقافة التحاليل، مقابل تراث آخر يعزز السعادة الإنسانية، والحفاظ على البيئة، والطموح والتطلعات، والمسؤولية الاجتماعية. والعدل والتسامح، وقبول الاختلاف،

غالباً ما تنقسم النظرة إلى التراث الثقافي الشعبي بين شقين إما التمجيد، من خلال مدح التراث إلى درجة الدوغمانية، أو الإدانة، من خلال نكران التراث وإزدرائه واعتباره ضرباً من التخلف، وفي كلا الحالتين هناك خلل فادح في التعامل مع التراث، الذي يعتبر المتهم الأول بالتعصب، وهو ما يبيته كتاب "تراث الاستعلاء بين الفولكلور والمجال الديني".

خاصة في ظل العلاقة المعقدة بينهما، وحاجتنا الماسة الآن لطرح إشكاليات تطوير التراث على مصراعها، والبدء في تطوير رؤى جديدة ذات أبعاد إنسانية، قادرة على تجاوز الانقسامات والصراعات الاجتماعية، وقبل هذا وذاك، أن تكون محاولات تطوير التراث قادرة على تجاوز ثنائية الإدانة والتمجيد، والنظرة الصارمة في الوقوف على الحياض.

ويقول "إذا تأملنا حركة الاهتمام بالتراث الشعبي في عالمنا العربي، سوف نلاحظ وجود حالة من التمرکز حول التراث أو التوحّد به. أقصد بذلك النظر إلى التراث على أنه كيان متجانس في مجمله يعبر عن قلب الأمة النابض بالحياة وجوهر هويتها. وكان التراث بمثابة الروح التي لا ينبغي لها أن تفارق جسد هذه الأمة كي تبقى على قيد الحياة".

وفي رأيه تترتب على ذلك حالة من الإعجاب الفولكلوري تكمن خلف أغلب الفعاليات الثقافية والفنية المعنية بالتراث، والتي تحاكي الماضي وتستعيد بفخر ما كانت عليه حياة الأجداد من أعراف ومعتقدات وعادات وطقوس وعسارة. ومن مظاهر التوحّد بالتراث، اعتبار الأقوال والمأثورات الشعبية للمهمة كأنها تعبير عن تراث ثقافي يشكل المصدر المطلق للحكمة الإنسانية. ولهذا تنطلق من هنا وهناك دعوات كثيرة تطالب بالحفاظ على التراث واستعادته، على اعتبار أن نسيان أي جانب منه أو فقدانه أو التخلي عنه خيانة كبرى وتفریط في الهوية الثقافية لامة بأكملها.

ويضيف المصري أنه في مقابل هذا الهوس بالتراث الشعبي، هناك نظرة أخرى مليئة بروح ازدرائية بالغة لكل ما يتضمنه الموروث الشعبي من مضامين ودلالات. هذه النظرة السلبية تمثل قاسماً مشتركاً بين النخبتين المثقفة والدينية، رغم ما بين هاتين النخبتين من تناقضات شاسعة في رؤى العالم. ولكل نخبة رؤيتها الخاصة التي تبرر بها هذا الموقف المعادي للتراث الشعبي. حيث اتجهت النخبة المثقفة نحو النظر إلى التراث الشعبي على أنه تعبير عن حياة بدائية وخرافات وأساطير عفا عليها الزمن، ولم تعد ملائمة للصمود في وجه الحدائة. وفي المقابل، سعى رجال الدين إلى اعتبار التراث الشعبي مستودعاً لكل البدع والضلال والهرطقة والوثنية التي تقف حاجلاً دون بناء حياة الإنسان على أسس دينية صحيحة. ولهذا تعرض

محمد الحماصي
كاتب مصري

تشكل العلاقة بالتراث الشعبي عامسة والمرتبطة بالدين خاصة حالة مستعصبة على الفهم ليس في الثقافة العربية والإسلامية وحدها، ولكن في مختلف الثقافات الإنسانية، وهناك اختلافات واسعة في الأفكار والآراء بين أبناء الثقافة الواحدة حوله، فالبعض يرى التراث الشعبي عائقاً ضد مواكبة متغيرات العصر وأن الدين منه يساهم في المزيد من تخلف الشعوب، والبعض يرى في الحفاظ عليه بسببها أو إيجابياتها جزءاً لا يتجزأ من الهوية الثقافية والاجتماعية والدينية.

التراث الاستعلائي يتضمن كل عناصر التراث اللامادي المعرزة للتمييز بين البشر لتكريس التعالي على الآخرين بمقتضى اختلافهم

ورغم مرور عشرات السنين منذ رصد التراث الشعبي وتحليله ودراسته، إلا أن قلة هم الذين توقفوا مع الجانب الديني من هذا التراث لأسباب كثيرة جعلها يرتبط بالاستغلال السياسي والخوف من رد الفعل المجتمعي. من هنا تأتي أهمية الدراسة المهمة التي قدمها سعيد المصري، أستاذ علم الاجتماع، ممثلة في كتابه "تراث الاستعلاء بين الفولكلور والمجال الديني"، حيث قدم طرحاً مختلفاً لما استقرت عليه تقاليد المدرسة المصرية في نظرتها إلى التراث الشعبي منذ السبعينات من القرن الماضي، والتي ترى أن التراث الشعبي مختلف تماماً عن التراث الديني الذي يقره رجال الدين. وبموجب هذا الموقف ابتعدت الدراسات الشعبية المصرية تماماً عن الخوض في أي قضايا تمس من قريب أو بعيد إشكاليات تتعلق بالعلاقة بين الدين والمجتمع على نحو مباشر.

الإدانة والتمجيد

يؤكد المصري في كتابه، المدرج ضمن القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد، والصادر عن دار بتانة، أنه لم يعد مقبولاً الآن الإبقاء على فصل العلاقة بين التراث الشعبي والتراث الديني،